

## مدينة الله للقديس أوغسطين

( 354 - 430 ميلادية )

اعداد : د. أحمد حسين السلمي  
أستاذ بمعهد التاريخ لجامعة  
الجزائر .

### حياته :

ولد القديس أوغسطين في تاغشت THAGASTE أي مدينة سوق أهراس من أعمال نوميديا و هي تقع جنوب مدينة عنابة ب 96 كلم عند اللاتينيين ( كان سكان سوق أهراس الأصليون وثنيين بينما كان المسيحيون فيها ذوي ثقافة لاتينية ، كان أبوه باتريكيوس وثنيا متوسط الحال تزوج مونيكا ( القديسة مونيكا فيما بعد ) و كانت فتاة تصغره بأعوام كثيرة و تمتاز بالوداعة و استقامة أخلاقها ، و لم يمنعها زوجها من ممارسة دينها بل سمح لها أن تعلم أولادها مبادئ الديانة المسيحية التي ما لبث هو أن أعتنقها فيما بعد .

و اذا كان أوغسطين من أب وثنى و أم مسيحية سجلت اسمه في عداد المرشحين للعماد و نشأته على محبة المسيح عليه السلام . عجز الأب عن ارسال ابنه الى قرطاجنة لمتابعة تعليمه ، فترك أوغسطين المدرسة ينتظر تحسين الأحوال و هو في السادسة عشرة ... و بقي مدة في طريق المفاسد و البحث عن اللذائذ مع زمرة من الرفقاء الخلقاء و عصى والدته (1) و أضرب عن نصائحها ، ثم عاش حياة زوجية لا شرعية مدة طويلة أنجب خلالها ابنا هو

(1) - الاعترافات : الترجمة العربية ص 46 / 58.

اديودات أمن له تنشئة رفيعة (2)، على كل حال لم يستمر أوغسطين على هذه الوضعية طويلا بل التحق بقرطاجنة لاتمام دراسته، فتضلع بعد مدة من الزمن في اللغة اللاتينية حتى أفتتح في تلك المدينة، و هو في التاسعة عشرة مدرسة لتعليم البيان، و ابان وجوده في قرطاجنة قرأ كتابا لشيرون اسمه هورطانسيون (ضاح فيما بعد) كان مؤلفه يقرطن فيه الفلاسفة ببلاغته المعهودة فصورها كمدرسة علم و فضيلة و وسيلة السعادة الدنيوية، فأندفع أوغسطين في طلب الحقيقة، حقيقة مصير الانسان، فقرأ الكتاب المقدس رجاء أن يجدها فيه، كما تعلم من أمه، و لكن الكتاب لم يجد الى نفسه سبيلا : كان أوغسطين متشبعا بالأدب اللاتيني فلم تعجبه لاتينية الكتاب و كان متعلقا بالدنيا و متاعها فلم تهزه مبادئه على أنه وجد ضالته في المانوية ( و هي مذهب نسبة الى مؤسسها ماني فاتك (3) فأنضم اليها و هو يعتقد أنه ما يزال مسيحيا كأمه .

تأثر أوغسطين بتوجيهات أمه و سلوكها الى حد بعيد جدا رغم

---

(2) - كان ابن أوغسطين هذا له ذكاء مثار اعجاب الجميع و طالما تناقش مع والده في موضوعات عديدة جمعها أوغسطين في "المعلم" و قد سبب موته، و هو في الثامنة عشرة من عمره حزنا عميقا لأبيه .

(3) - ماني بن فاتك ولد حوالي سنة 215 ميلادية، كانت أمه ترى في اليقظة كأن هناك من يأخذه فيصعده الى السماء ثم يرده، و أحبانا كان يغيب يوما أو يومين ثم يعود و كان يتكلم في طفولته بالحكمة . و هو من أصل فارسي (أذربيجان) و لكنه ولد ببابل حيث درس بها ماني الأديان الفارسية "القديمة" و بخاصة عقيدة زرادشت وكتبه و المسيحية و الغنوصية، وبنى ماني المسيحية، و لكنه استند على أنجيل أقدم من الأنجيل الأربعة المعروفة، وقرر أن المسيح لم يصلب، و لنما الذي صلب شيطان تمثل في صورته مستندا في ذلك على الأنجيل و الأخبار المتواترة التي وصلته، و كان قريب العهد من ظهور المسيح و كان لا يأبه بالعهد القديم و الجديد و يرى أن يد التغيير قد أصابته و لذلك هاجم اليهودية هجوما عنيفا، و يرى كثير من المؤرخين الأوروبيين صحة "الكثير من آراء ماني" فيما يخص العهدين القديم و الجديد . و كان "ماني" يعتقد أن مبدأ العالم كونان "أحدهما نور و الآخر ظلمة" و من النور الاله الحق ملك جنان النور . على كل حال يمكن اعتبار "ماني" كمسيحي متمرد لم ترض عنه الكنيسة الكاثوليكية فهاجمته و تبرأت منه .

مخالفته لنصائحها مرار في بداية حياته ... ولم ينفذ ميعرها من أجل توبيخه ابنها ولم ترض على تصرفاته بعد عودته من قرطاجنة نحو سوق أهراس حيث عمد الى نشر المانوية في مسقط رأسه فأبته أمه ذلك فلم تسمح له بدخول منزلها كعقاب على فعلته . و توجه بعد ذلك نحو ميلانو بإيطاليا فلاحقته أمه و كان زوجها قد مات، و ألحت على أوغسطين أن يترك زوجته و يهني حياته من جديد مع فتاة ذات حسب و نسب فأنصاع لأمرها و لكن هيئاته لأنه لم ينجح في زواجه الجديد، و بقي عبدا لشهواته فتضاعفت آثامه .

و في روما أنشأ مدرسة البيان، و كان بليغا في اللغة اللاتينية و تقدم بعد ذلك الى مسابقة أستاذية البيان في ميلانو ففاز و أصبح أستاذا في هذه المدينة و أخذ يتردد على الكنيسة الكاثوليكية و يستمع الى عظات أسقف المدينة " القديس أمبروان " (4) التي تخص شرح الكتاب المقدس و الرد على المانويين و غيرهم من المبتدعة، فمال أوغسطين الى التحليل الكاثوليكي للكتاب، فترأخت علاقته بالمانوية شيئا فشيئا حتى قطعها بعد ما كان مناصرا لها مدى تسع سنين .

و ازداد إيمانه بالكنيسة و مبادئ الكاثوليكية مع مرور السنين فأعتقد أن الخلاص يكمن في الديانة المسيحية و تبني فلسفة المسيحية المتعلقة بالخير و الشر و هناك من يرى أن الأفلاطونية هي التي قاد أوغسطين الى ديانة المسيح على ما نقل من اليونانية بقلم " فيكتورينوس " .

و لكن رغم اقتناعه الديني هذا، لم يبدد ذلك شكوكه، و لكن أقامته في الريف الإيطالي يعتبر كتحول كبير في حياته ... فقد قضى مع أصدقائه الأعداء ببادية إيطاليا شهورا كانت مفعمة بالتقشير و البحث و القراءة،

---

(4) - القديس أمبروان عاصر القديس أوغسطين و كان أستاذ هذا الأخير، كان يجيد اللغة اليونانية و اللاتينية و درس القانون و عمل في مناصب الحكومة العلمانية بروما مدة أربعة أعوام و أصبح أسقفا على ميلانو برغبة أجمع عليها الشعب و وهب حياته بعد ذلك في خدمة الكنيسة، و تصدق بكل متاعه الدنيوي على الفقراء . و هاجم أمبروان المذبح و تمثال النصر الذي أقامته الوثنية في روما حيث تناول هذا الموضوع بعمق .

و أطلع أثنائها أوغسطين على الكتاب المقدس من جديد، فتغيرت نظرتهم بشكل جذري و هذه المرة نحو المسيح و النعمة الالهية التي تعين على فعل الخير و التغلب على الشر بعيدا عن تأثيرات الأفلاطونية و وفد ذات يوم زائر كريم حدثهم عن حياة الرهبان في مصر و غيرها و ما يعانون من ألم و حرمان في سبيل الكمال، و عن أولئك الذين يزهدون في الدنيا ابتغاء مرضاة الله في زعمهم (5) و من جملتهم العالم الكبير فيكتورينوس فخلج أوغسطين من ترده ( أستصغر نفسه . و خرج الى الحديقة و هو في صراع عنيف مع أهوائه . و بعد ذلك " اقتنع " اقتناعا تاما بالمبادئ المسيحية فتناول رسائل القديس بولس و كانت على مقربة منه فزادته مطالعته لهذه الرسائل عمق ايمانه فذهب الى القديس أمبروان و قبل منه المعمودية و كان في الثالثة و الثلاثين.

و عاد الى تاغشطا مسقط رأسه ( أي سوق أهراس ) مع بعض أصدقائه و عاش و اياهم عيشة " الرهبنة " ثلاث سنين ثم طلب أهل عنابة أي " هيبون " جعله كاهنا عليهم فأجابهم الأسقف الى طلبهم، و بعد خمس سنين توفى الأسقف، فأنتخب أوغسطين كأسقف لعنابة . و مكث في هذا المنصب مدة خمس و ثلاثين سنة، قد تأثر كثيرا في أواخر أيامه بغنواوندال لبلاد المغرب القديم... و خاصة أنهم تقدموا نحو مدينة عنابة و حاصروها و لكن فاضت روحه قبل دخول الوندال للمدينة في سنة 430 ميلادية .

### مدينة الله :

لما أجتاح القوط مدينة روما سنة " 410 ميلادية " أوعز الوثنيون هذه الكارثة الى هجر الناس للآلهة القديمة و بخاصة عبادة حوبيتر و كانت هذه الحجة الرومانية تتطلب رد، فجاء الجواب من أوغسطين فكتب مدينة الله ( 412 - 427 م ) و دام تأليفه للكتاب سنوات عديدة، و رغم أهمية الكتاب من الناحية الدينية حيث أشرى ثقافة الكنيسة الكاثوليكية، و لكن هناك مأخذ كثيرة على هذا الكتاب، فيتمس بالاطناب الممل و المتاهات الفلسفية التي لا جدوى منها اطلاقا . و عندما يقرأ المرء أجزاء من الكتاب أو المضامين الهامة

---

(5) - يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الأوروبية العصر الوسيط (ص 20، 21).

منه يتصور وكأنه شرح للكتاب المقدس العهد القديم و الجديد لا أقل و لا أكثر  
علاوة على الاستطرادات الطويلة .

و يذهب أوغسطين بل يغور في عالم الأديان و قصص الأنبياء ...  
فيبسط لنا و يفصل تفصيلا تاريخ الأديان السماوية منذ عهد آدم عليه السلام ، ثم  
قايين و هابيل ، و يرى أن أنصار المدينة السماوية ، و مدينة هذا العالم بدأوا  
في الظهور فأنقسموا الى قسمين منذ أن خلق الانسان فكان هابيل من أتقياء  
مدينة الله و هذا عكس قايين .

على كل حال يذكر القديس أوغسطين تاريخ اليهودية و المسيحية  
و الأمم التي تعاقبت كالبابليين و الآشوريين ، و الفراعنة و اليونان و الرومان  
الخ... و تطور هذه الأمم و أثر ذلك في العالم .

لا يبدي في كتابه نوعا من الجدلية في تحليله للأنقياء الذين هم  
أنصار مدينة الله ، و تتجلى مظاهر هذه المدينة منذ القديم فآدم و هابيل  
و نوح و ابراهيم و موسى و داود عليهم السلام ثم المسيح كلهم يمثلون الأنبياء  
الذين دعوا الى المدينة السماوية بينما مدينة هذا العالم ( و يرى أنها مدينة  
الشياطين ) فتتمثل في الأمم التي عبدت الأوثان كالأشوريين و الرومان  
و الاغريق ، و يظهر أوغسطين ميلا شديدا الى أفلاطون الذي رأى أن الله لم يكن  
كائنا ماديا بل الأشياء المادية أستمدت وجودها من الله .

و لكن يعتقد أن الأفلاطونيين على صواب فيما قالوه عن الله لكنهم  
مخطئون فيما ذكروه عن الآلهة (6) . فيما يخص البعث يوم الآخر فيرى أن هناك  
بعثان ، بعث للروح عند الموت ، و بعث للجسد في يوم الحساب ، و بعد بعث  
الجسدستحرق أجساد الذين حقت عليهم اللعنة احتراقا أبديا .

و هناك مناقشة مستفيضة عن الملائكة و الشياطين في الكتاب ،

---

(6) - أنظر برتراند راسل : تاريخ الفلسفة الغربية ، ص 87 ، 88 ، 89 ، ترجمة  
د. زكي نجيب محمود .

فالملائكة حسب نظر أوغسطين قد يتصفون بالخير، و قد يتصفون بالشر... أما الشياطين فأشراً دائماً.

و يهاجم أوغسطين التعذيب كوسيلة من وسائل المحاكمات. الفكر السياسي عند أوغسطين. أما موقف القديس أوغسطين من الدولة فيرى أنها لا تستطيع أن تكون جزء من "مدينة الله" إلا إذا خضعت للكنيسة في كل الأمور الدينية.

و أمد أوغسطين الكنيسة الغربية في العصر الوسيط بالأسس النظرية التي تقيم عليها سياستها إبان ازدياد السلطة البابوية و نشوب الصراع بين البابا و الامبراطور.

و حذت الدولة المسيحية حذو الدولة الدينية العبرانية التي اتسمت بعهد القضاة في فلسطين بعد عودة العبريين من الأسر البابلي. (عهد قورش الفارسي). و تمكنت الكنيسة الى حد كبير من تحقيق المثل الأعلى المتمثل في مدينة الله بفضل ضعف الأباطرة. و جاءت حركة الإصلاح الديني فأحييت مذهب القديس أوغسطين في الخلاص لكنها نبذت تعاليمه النظرية، و أتبعته أرزم الذي يقوم بوجوب خضوع الكنيسة للدولة و يرجع ذلك الى ضرورات المواقف العملية التي نجمت عن صراعها مع الكاثوليكية، و رغم ذلك ظل أكثر أتباع البروتستانتية تدنوا متأثرين بالقديس أوغسطين.

فأخذ منكرو التعميد و رجال الملكية الخامسة و الكريكيون عن أوغسطين جزءاً من تعاليمه و لو أنهم كانوا أقل اهتماماً بسلطة الكنيسة و تمسك أوغسطين بالمبدأ القائل أن كل شيء خط قدره قبل خلقه كما تمسك بمبدأ التعميد من أجل الخلاص من الخطيئة، هذا مع العلم أن البروتستانت لبثت فلسفتهم في الحشر و النشر تابعة لأوغسطين.

و رغم أن مدينة الله لها جذور تاريخية دينية قديمة قبل ميلاد المسيح، و لكن أصبحت لها معالمها المميزة و الخالدة مع مجيء سيدنا عيسى عليه السلام كما يرى ذلك أوغسطين كغاية في دراسته لهذه المدينة الأبدية التي قوامها جماعة الأخيار المعتقدن لمبادئ المسيحية في هذه الدنيا

و الذين يدخلون جنات عدن بعد الحشر و النشر.

في الأخير نجد لفظة كريمة من أوغسطين لمأساة قرطاجنة التي قام الرومان بهدمها سنة 146 ق.م فيرى أن هذه المأساة تسبب فيها سيبون الافريقي الذي طالب بتدمير قرطاجنة في مجلس الشيوخ الروماني (SENATUS) فوجد معارضة لدى ابن عمه الذي شجب هدم المدينة . و يرى أوغسطين أن القضاء المبرم على قرطاجنة العاصمة السياسية للقرطاجنيين قد عمل على تميع و فساد أخلاق الشباب الروماني و أدى الى تفشي الاستبداد السياسي و الظلم الاجتماعي في روما .

## مصادر و مراجع البحث

- ( 1 ) - د. علي زيغور : أوغستينوس، دار اقرأ، بيروت 1983م.
- ( 2 ) - برتراند راسل : تاريخ الفلسفة الغربية، ترجمة : د. زكي نجيب محمود، راجعه : د. أحمد أمين.
- ( 3 ) - القديس أوغستينوس : الاعترافات، الترجمة العربية، بيروت.
- ( 4 ) - يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الأوروبية في العصر الوسيط ، دار القلم، بيروت، لبنان 1979م.

## المصادر الفرنسية

- 1 ) - ST AUGUSTIN. LA CITE DE DIEU, LA TRADUCTION FRANCAISE DU LATIN DE G COMBES, TOMMES 33, 34, 35, 36, 37. DESCLEE DE BRUWER 1959.
- 2 ) - LABBE GABRIEL VIDAL. LA CITE DE DIEU, TRADUCTION NOUVELLE IMPRIMATEUR, ALGER, 14 JUIN 1930, CHEZ L'AUTEUR EGLISE ST MARIE, MUSTAPHA SUPERIEUR ALGER.
- 3 ) - ETIENNE GILSON. INTRODUCTION A L'ETUDE DE ST AUGUSTIN, PARIS, 1929.